

## ليلة هادئة جدا

ليلة حرب هادئة جدا ليلة أمس كانت في منتهي الهدوء . أعتقد بأنني غفوت ساعة . أقل أو أكثر قليلا . لم يتوقف صوت الزنانات والطائرات والمدافع لحظة كل ذلك لا شيء حينما يسقط صاروخ أو برميل بارود وزن طن أو ستة براميل في آن واحد تزلزل الأرض ترفعها وترجها وكأن القشرة الأرضية بالون طفل امتلئ بالهواء عن آخره يوشك على الانفجار ويدمر الدنيا. لحظات تشاهد بها الموت ألف مرة وبعد انتهاء الانفجار لا تصدق بأنك لازلت حيا وأنك وهبت لحظات جديدة بالحياة وتظل تنتظر الانفجار القادم الموت القادم ربما بعد دقيقة أو دقيقتين على الأكثر.

كانت ليلة هادئة فعلا يكفي أننا استطعنا قبل أن ننام أن نتعشى علبتان من الفول لثلاثين شخصا وذلك على غير العادة. كان العشاء بمثابة حفل كبير على شرف الفول. ولكن ما أفسد الحفل هو انتهاء الخبز. حيث تعشينا جميعا بخمسة أرغفة والحقيقة أنا من أفسد حفل العشاء وذلك بسبب قلبي. لأنني كنت قبلها أقف على الشارع وأتي رجل وطفانيه وطلب مني الخبز، الخبز فقط لكي يطعم ابنتيه اللاتي لم يتنوقن الخبز منذ ثلاثة أيام .. في الحقيقة بالبداية قلت له لا يوجد عندي خبز. ولكن كانت نظرة واحدة فقط من إحدى الطفلتين كفيلة بأن تخترق قلبي كقنبلة من رحمة وأقول له انتظر. وأحضر له خمسة أرغفة لتقاسم معه ما لدي من خبز. لن أنسي ما حبيت كيف التقطت يدها المرتجفة تلك الأرغفة وكيف عادت عيون الطفلتان الى اللعنان مرة أخرى وذهب مسرعا وهو يتشكرني. وكأنه هارب بغنيمته الكبرى التي لا يريد لأحد بأن يراها معه.

أحيانا يصبح الهدوء مملا، خاصة إذا اتصل بك صديق في منتصف الليل لتطمأنك أنه مازال حيا ولكن أصدقاء الطفولة يوسف وعدنان قد استشهدا وعائلاتهم قبل قليل . كم كنت أحب تلك الشقية سمر ابنة عدنان التي لم تتجاوز الثلاث سنوات كانت في كل مرة أذهب لزيارتهم تركض باتجاهي تتشبث في رقبتني لتأخذ هديتها بعينيها السود وشعرها المجعد وطولها الفارع الذي كان لا يتناسب وعمرها كنا نتوقع لها أن تكون بطلة في لعبة الباسكيت بول.

ليلة مميزة فعلا. لم اكد أغلق الهاتف ولم اعلم كيف خانتني دموعي. ولم استفق إلا على صوت انفجار كبير تبعه المطر الشديد الذي انهال علينا فوق سطح الزينكو الذي كنا ننام أسفله استغرقنا الأمر لحظات حتي أدركنا أنها حجارة اخترقت الزينكو وتطايرت بألاف القطع من العمارة التي لم تبعد عن سكننا عشرين مترا قبل أن تصبح بلحظات حفرة كبيرة لم يتبق منها سوي بضعة أعمدة وشجرة نخل كانت مزروعة بالمنزل منذ عشرات السنين ظلت صامدة بأعجوبة وكأنها ترفض الموت لتظل شاهدة على ما حدث ولكن تساقط الكثير من حبات البلح التي كانت تحتضنه في حضنها . يا لهذا الهدوء القاتل. اسمع المذيعة في قناة الجزيرة تقول أن تلك الليلة الأشد منذ بداية الحرب لأن الهدوء لم يتوقف لدقيقة تكاد أعصابي تتحطم من شدة الهدوء. هذه القذائف والصواريخ صنعت لكي تخيفنا. لا يمكن إلا أن تخاف. ولكن كيف لي أن اكتب وسط كل هذا الهدوء المرعب .إن هذا لا يتساوق مع النفس البشرية .لأنني قد أموت بأية لحظة وغير كارث بذلك وجالس أكتب كأن لا شيء يحدث من حولي نعم من حولي، لأن الارض لا تنفك عن الاهتزاز ورائحة البارود تزكم أنفي والدخان يملأ المنزل بين الحين والآخر والانفجارات لا تتوقف. يبدو أنني جننت. أعتقد ذلك. أو أنني ميت. لأقوم حتي آخر حرف وأوصل صوتي الي العالم .العالم الصاخب الذي لا أتمني له هدوء مثل هدوئنا. انعموا بصخبكم وحينما تشاهدون أخبارنا اديروا وجوهكم عنا أو غيروا القناة خوفا من أن نزعجكم .أتمني لكم نوما هنيئا.

2023/10/10 علي ابو ياسين